سنسافر غدا

انتهينا من التصحيح وكان علينا أن نعود.. كانت منازل دمشق غاصة بالضيوف بعد أن طفحت الفنادق بنزلائها، وكنا قد أرهقنا ميزانية عمتي خلال أسبوع ولم يعد من اللائق أن نطيل بقاءنا، قال أخي معتصم: "سنسافر غدا" فصمت، وغيظ على عادة الإخوة وقال: "انك تفقدين الإنسان أعصابه، والتفت الى رفيقة وأضاف: "أنظري اليها! انها كالسكرى، تكلمينها فلا ترد، وتسير في الطريق وكأنها لا ترى الناس ولا السيارات..

وقاطعته دون أن أرد عليه:

-أريد أن أبقى لأغير جنسيتي.

-لماذا؟ أي شيء طلع برأسك الآن؟

-انها تفيدني، ان شئت سافر أنت ورفيقة فسأبقى أنا بضعة أيام أخرى..

-لماذا لم تفكري بالأمر منذ قدمنا؟

-بل فكرت والمعاملة في طريقها لتنجز، ولا أريد أن أتركها معلقة..

لم أستطع القول له بأنني خطبت وعلى وشك الزواج وأنني بحاجة لها من أجل ذلك، بل لم أكن أرغب أن أقحمه في أمري وأبدأ معه جدالا لا ينتهي فيما يجب علي أن أفعل وما لا يجب.. ما أحمق الإخوة وهم يجعلون أنفسهم أوصياء وحراسا أخلاقيين علينا ولو كانوا أصغر سنا، وأقل تجربة ومعرفة بالحياة! لم أكن أريد منه شيئا سوى أن يذهب ويتركني، انني أعرف مكامن سعادتي وأعرف كيف أختار رجلي، ولن أترك الأمر للمصادفة أو لإرادة أحد غيري. انها قصة حياتي وأنا مسؤولة عنها.. ولكن معتصم لم يقتنع وألحّ على سفري وقال وهو يترك البيت متجهما:

-سأقطع بطاقات السفر على كل حال!

وتبادلت وأختي النظرات، كنت في ضيق وهم، ولكنني ما لبثت أن ابتسمت، اتخذت قراري، لا أريد أن أبرح دمشق ولن أبرحها..

لم ألبث أن انتقلت الى منزل صديقة لي كان زوجها مسافرا، وكان منزلها هي الأخرى غاصا بالضيوف بسبب المعرض الاّ أنه متسع.. ألحت علي منذ

قدومي أن أنزل في ضيافتها ولكنني كنت أفضل أن لا أثقل عليها، ولعل عادتي هي التي سيطرت علي اذ كنت منطوية على نفسي، ولم يحدث في حياتي أنني نمت في بيت غريب..

انها الشاعرة عزيزة هارون! عرفتها في اللاذقية وتوطدت بيني وبينها صداقة متينة. فالأدب يجمعنا بالرغم من فارق السن بيننا. وكنت موضع أسرارها، وأتعاطف مع ظروفها القاسية التي جعلتها تتزوج ثلاث مرات.. أحببتها لأن لها روح طفلة وبراءة طفلة، وكم كان فرحها لقبولي دعوتها أنا وأختي رفيقة! قلت لصديقتي وأنا أمشط شعري أمام المرآة استعدادا للخروج..

-ان من أحبهم تبدأ أسماؤهم بحرف ع أخي عادل وصديقتي عزيزة، والرجل الذي اختاره قلبي عفيف..

ضحكنا.. كانت على طرف فراشها ترمقني في حنان:

-سعيد هذا الرجل الذي أحبك يا يسرى.. ولكنها لم تلبث أن أردفت في قلق:

-هل أنت واثقة منه؟ ان شباب دمشق لا يؤمن لهم..

ضحكت وقلت: "أنا صادقة الفراسة والحدس في معرفة الناس، ليس غرّا فج العاطفة حتى لا يعرف ما يريد، والشاب الكفؤ لا يخدع أحدا ولا يتلاعب بعواطف الآخرين..

حين شارفت الساعة الرابعة أحسست بانفعال لذيذ يتثلج أطرافي، وقبلت صديقتي مودعة فضمتني متمنية لي السعادة ولكنها لا حظت شحوبي وهي تسوي لي خصلة ناشزة من شعري..

-ضعي قليلا من الأحمر على وجنتيك يايسرى!

سرت في الشارع المشجر على مهل، وحين وصلت الى المنعطف عبرت الطريق سيارة عسكرية لم تلبث أن توقفت وبرز منها عفيف..

صافحني بحرارة، ثم استدار ليسجل شيئا ناوله للسائق وصرفه.. ولاحظت للمرة الأولى كم هو نحيل، وأحسست بقلبي يذوب حنانا.. أمسك بيدي وقال:

-كنت في الجبهة وخشيت أن أتأخر. فابتسمت:

-لاحظت أنك على سفر من الطريقة التي جعكت بها سترتك من الخلف..

ضحكنا ثم قال لي:

-لم أنم ليلة البارحة، قرأت الجزء الأول من روايتك وبقيت الى ساعة متأخرة أفكر بها وبك ولكنني لم أنهها..

سألته عن رأيه بها وأنا أحاول جاهدة أن أخفي لهفتي وانفعالي لما يبديه من رأي..

-طرحت موضوعا بالغ الأهمية في حياتنا المعاصرة.. انها رواية رائعة، ولكنك تحتاجين الى خمسة أعوام لتعطيها أبعادها الكاملة من الثقافة التاريخية والإجتماعية لتصلي بها الى مستوى الأدب العالمي.. موقفك كأديبة يجب أن يحدد!..

-أنا لا أفبرك قصصا، أصف الحياة والناس عن تجربة واقعية، انني أتعلم من الحدث الذي تنسجه الحياة نفسها ولا أفرض رأيا على أحد!

-لن يكون لأدبك معنى ولا روح ان لم تحددي موقفك وتدافعي عنه بشجاعة.. انتظري خمسة أعوام، حتى تنضج ثقافتك!.. والأسلوب! ان أفضل أسلوب في رأيي لانتقاد العيوب الخلقية هو الإنتقاد اللاذع الساخر..

-سأتعلم منك هذا الأسلوب.. انني في الواقع جادة أكثر مما ينبغي ولا أملك القدرة على الحوار الساخر..

تحدثنا طويلا عن الأدب، عن الحوار فيما اذا كان من الأفضل أن يكتب بالفصحى أو اللغة العامية، ان آخر شيء كنت أتصوره أن أجد ضابطا يتحدث في الأدب ويستطيع أن يكون ناقدا أدبيا ممتازا!

قلت له ذلك فضحك: "غدا ستقرئين في مكتبتي الكتب التي قرأتها في الأدب والإقتصاد والفلسفة، ولكنها باللغة الفرنسية.

-أنا أعرف الفرنسية، وفي الإمتحان المقبل في حزيران، اخترت مادة الأدب الفرنسي بدل اللاتينية، ومطلوب مني ثلاث مسرحيات لدراستها..

-كل المسرحيات القديمة موجودة عندي، ولعلي ان وجدت وقتا لدي أن أساعدك في دراستها..

ما أجمل أن يتعثر الإنسان طويلا، ثم يهتدي فجأة الى انسان يحمل كل المزايا التي يحلم بها وأكثر!..

هتف بنا صديق له صادفنا في المعرض:

-سأشتري لكما خاتمي الخطوبة، انها هدية تبقى مدى العمر..

كان سعيدا يعرفني على أصدقائه الذين نلتقي بهم مصادفة فيهنؤونا في حرارة ولهفة..

-انه الدكتور أنور نعمان!

-حقا! انني التقيت بزوجته الفرنسية في الحفل الذي أقيم لليونيسكو وكنت أحدى المدعوات.. وهي تعرف عمتي وابنتها صديقة لها..

* * *